الفصل الحادي عشر

◆ ◆ ◆

الصفات المميزة لـ قابيل

عندما تشاهد فيلماً جيداً من أفلام الرعب، تتملكك الرهبة وتميل إلى الإشاحة بوجهك عن المشهد المرعب وتجنب رؤية ما يحصل أو ما سيحصل. وهذا رد فعل غريزي للهروب من الواقع، وإن كان هذا الواقع وهمياً. وكذلك الأمر في العالم الحقيقي. بمعنى أن هابيل يتهرب من مواجهة الواقع الذي يمثله قابيل، وذلك لأن هذا الواقع مزعج ومخيف.

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث عندما تشاهد فيلماً، هو تلك الصورة أو الحدث المرعب الذي يظهر على الشاشة والذي تستطيع تجنب رؤيته إذا رغبت. أما في الحياة العملية، فالتهرب من الحقيقة ينجم عنه نتائج ملموسة. يريد قابيل أن يهابه الآخرون لأن ذلك يمنحه القدرة على التلاعب بهم. ويريد أيضاً من مرؤوسيه أن يتهافتوا على إرضائه وتنفيذ مؤامراته الوضيعة.

قد تكون واعياً للمخاوف التي تنتابك في هذا الشأن. لكنه لا يجوز الاستسلام لهذه المخاوف. يجب أن لا تخشى من مواجهة الحقيقة.

من هذا المنطلق، من المفيد أن نعرض الصفات المميزة لقابيل، والتي يمكن اعتبارها مؤشرات أو شواهد تستدل بها عليه.

المؤشر الأول: ولع قابيل بالكذب

من الممكن أن قابيل كان في الماضي قد أسدى خدمة لك عن طريق تزوير الحقائق لمصلحتك، لكنك دفعت ثمن ذلك عندما اكتشفت بأن من يكذب من أجلك على استعداد أيضاً لأن يطلق الأكاذيب التي تشوه سمعتك. ومن الممكن أيضاً أن تكون قد صدقته في الماضي لأنه بارع في مزج الحقيقة بالكذب، بحيث تبدو الرواية قابلة للتصديق.

وأياً كانت الظروف التي كشفت لك أكاذيب قابيل، تبقى الحقيقة الثابتة هي أن قابيل مدمن على الكذب حتى في الأمور التي لا ناقة له فيها ولا جمل. بكلمة أخرى، يصبح الكذب بالنسبة له ضرباً من التسلية بقدر كونه وسيلة لخدمة أغراضه.

لهذه الأسباب يقول أرثور شوبنهور الفيلسوف الألماني الذي تأثر بكتاباته العديد من علماء النفس بما فيهم فرويد: «إذا شككت بأن رجلاً يكذب في ما يقول، فتظاهر بأنك تصدقه؛ لأنه في هذه الحالة سيمضي قدماً في كذبه وسيفضح نفسه بنفسه في نهاية المطاف».

المؤشر الثاني: ما يتفوه به في حالة الغضب

لا شك بأن كل فرد معرض لأن يغضب من حين لآخر، وأحياناً لأسباب لها ما يبررها، وخاصة عندما نرى مثلاً ظلماً يرتكب بحقنا أو بحق إنسان آخر. لكن قابيل في سورة غضبه يكشف عفوياً عن طبيعته الحقيقية، لأنه يميل إلى إظهار الضغائن الدفينة التي يحملها والتي تتعدى موضوع الخلاف. ذلك لأنه عندما يفقد السيطرة على نفسه يلجأ إلى القدح والذم وتظهر أمام العيان المشاعر البشعة التي تحكم تصرفاته، وقد يعتذر فيما بعد عما بدر منه، (إما من تلقاء نفسه، أو إذا طلب منه ذلك أحد رؤسائه). لكن ذلك يجب أن لا يدفعنا إلى نسيان ما قاله في سورة غضبه. ثق بأنه كان يعني كل كلمة قالها. وقد يبدو لك من الصعب تصديق ما قاله، لكن كلماته تعكس بدقة حقيقة ما يشعر ويؤمن به في الخفاء.

المؤشر الثالث: المتعة التي يجدها قابيل في إيذاء الآخرين

أبدى الروائي غور فيدال ملاحظة تنم عن المرارة والسخرية حين قال: «النجاح وحده لا يكفي، إذا لم يكن مصحوباً برؤية الآخرين يفشلون». وقابيل يؤمن بهذه المقولة لأنه يجد في فشل الآخرين تعويضاً للنقص الذي يشعر به، ويشعر بالارتياح عندما يؤذي الآخرين ويؤلمهم، قد يعزي علماء النفس هذه النزعة إلى حالة مَرَضية مردها إلى شعوره بأنه مهدد، أو ربما إلى تجربة قاسية في طفولته. وأياً كان السبب، عليك أن تدرك أن هذا الشخص يستمتع بإيذاء الغير. لذلك يجب التزام جانب الحذر عندما تحتك به.

المؤشر الرابع: الدلائل غير المباشرة

نعيش الآن في زمن أصبحت فيه الأدلة في القضايا الجنائية لا تكتمل إلا عندما تُدعم بتحليل الحامض النووي DNA أو بشريط ڤيديو كجزء من الأدلة لتحديد هوية الجاني. قابيل من جانبه يستغل ميل زملائه إلى الشك بالروايات التي يسمعونها عنه، ويفترضون أنه بريء بالرغم من تراكم الأدلة. فهابيل وأمثاله يكادون لا يصدقون بأن فلاناً يمكن أن يكون بهذا الخبث.

يجب أن لا تخشى من إطلاق الأحكام عندما تتوفر لديك الأدلة الكافية. نحن لا نقول باتهام أي رجل أو السعي لفصله من عمله دون مبرر، لكنه من الأفضل أن نتذكر بأن بعض الظن إثم وليس كله، هناك مثل فرنسي قديم فيه الكثير من الصحة: «إن الذي يستفيد من الجريمة هو مجرم أيضاً».

اعلم أن قابيل يجيد اكتساب ثقة الآخرين

سبق وذكرنا أن قابيل بارع في التمثيل، ويستغل قدرته هذه لكسب ثقة الآخرين من ذوي النوايا الحسنة. وكثيراً ما يحقق أغراضه بالتودد لهذا الشخص أو ذاك بغية استدراجه للاطمئنان إليه، ومن ثم استغلاله لتحقيق مآربه.

اعلم أن هابيل يحب إسداء الخدمات الشخصية

قد تبدو هذه الصفة غريبة وغير متوقعة في شخص مثل قابيل. فمن منا لا يحب إسداء خدمة لأصدقائه أو أفراد عائلته وإلى كل من يستحق المساعدة؟

ولكن ماذا عن الدافع؟

يتلهف قابيل لإسداء الخدمات الشخصية، لأنه يعتبر هذه الخدمة التي يسديها ديناً، وعلى الشخص الذي تلقى الخدمة أن يسدد هذا الدين لأنه أصبح بذلك «يمون عليه» كما يقال بالعامية. والمدين يكون عادة في موقف ضعيف تجاه الدائن.

في حين أن هابيل عندما يسدي خدمة لزميل له، يفعل ذلك بدافع المروءة، ويكتفي بكلمات الشكر والامتنان معتبراً ذلك ثواباً كافياً على ما قام به. وقد يعتبر الخدمة التي أسداها جزءاً من واجبه. أما قابيل فهو عكس ذلك بمعنى أنه يسعى لتحويل أية مساعدة إلى «خدمة فردية»، حتى وإن كانت هذه الخدمة جزءاً من واجبه، وذلك لأنه يريد من الآخرين أن يشعروا بأنهم مدينون له.

عندما ينتابك شعور بعدم الارتياح في تعاملك مع شخص معين، دع ضميرك يقول كلمته. استمع إلى ما يمليه عليك ضميرك ولا تكبت صوته.

والحقيقة أن كثيراً منا لا يصغي لصوت ضميره، ويختلق الذرائع لتبرير خضوعه للإغراء. إن قابيل يعتمد على سذاجة الناس تجاه طموحاته وطموحاتهم أيضاً. إذن، لا بد لك من الإصغاء لتحذيرات ضميرك. أما إذا تجاهلت صوت الضمير فقد تندم على ذلك بعد فوات الأوان.